الاستاذ باهي فاتح : جامعة الشهيد محمد الاخضر الوادي

Taher75b@gmail.com / 0668389703

المحور: مظاهر التبادل الحضاري بين الجزائر وبلدان الساحل الإفريقي ما بين القرنين 16و20م.

عنوان المداخلة: العلاقات الثقافية والفكرية بين الجزائر وبلاد السودان الغربي في العصر الحديث.

مقدمة :

لقد حظيت الجزائر بموقع استراتيجي مهم جدا بالنسبة لقارة افريقيا جعلها محل احترام شعوب العالم القريب و البعيد، الأمر الذي أدّى بدو لا الساحل الافريقي- ومنها خصوصا الواقعة في الجهة الغربية-
إلى مد جسور التواصل و محاولة التقرب منها و ربط علاقات متينة معها على مستويات عدة، وبرز تحركة دؤوبة بينها و بين أقطار الساحل الافريقي تمحور تحول مجالات عدة أهمها التواصل في الجانب الفكري و الثقافي حيث شهدت المنطقة حركة دؤوبة و نشطة فيه ذا المجال الميّز ها كثرة الرحلات العلمية و تبادل المعارف و الخبرات فيه مجالا لتدريس و الإفتاء و بروز حركة التأليف و الاهتمام بالمخطوطات القديمة التي خلّفها علماء المنطقة الجنوبية الغربية من الجزائر (خاصة منطقة توات)، حيث كان لعامل القرب الجغرافي الدور الأساسي في تفعيل و دفع العلاقات بين الجزائر و بلاد السودان الغربي في الميدان الثقافي و الفكري و في أغلب الميادين.

وسنحاول من خلال هذه المداخلة إبراز
أهم النشاطات الفكرية و حركية التبادل الثقافي بين الجزائر ممثلة في منطقتها الجنوبية الغربية خاصة، و بين بلدان السودان الغربي التي ربطتها علاقات متينة مع بلاد المغرب عموما و الجزائر بصفة خاصة، و كذا بيان انعكاسات التواصل في الجانب الثقافي على باقي مجالات الحياة الأخرى، و مدى أثر النشاط العلمي و الثقافي و الفكري بحركة الاستعمار التي مسّت أغلب دول افريقيا في العصر الحديث.

حيث كان لمنطقة الغرب الافريقي وبلدان الساحل علاقات تاريخية وطيدة وتواصل حضاري مع بلاد الشمال الإفريقي، أو ما تسميه المصادر التاريخية والجغرافية بلاد المغرب بأقسامه الأربعة والتي تشكل الجزائر موقع القلب منها[1]، مما أهلّها للعب أدوار هامة في تحقيق التوازنات بين دول هذه المنطقة الهامة في خارطة القارة الافريقية على مرّ العصو، بدءً من الفتح الإسلامي إلى الفترة المعاصرة، ولم تعق الحواجز الطبيعية في يوم من الأيام قيام علاقات وروابط فكرية وثقافية بين الجزائر وبلدان السودان الغربي .

1 التعريف بالسودان الغربي :

كان العرب يسمون منطقة غرب افريقيا بلاد السودان ، وهي المنطقة الواقعة جنوب الصحراء الكبرى تحدها شرقا بحيرة تشاد وغربا وجنوبا المحيط الأطلسي، كما تسمى أرض الشعوب السوداء وتشمل ممالك التبرنو وقاعدتها مدينة كاكا وبلاد كانم وقاعدتها مدينة جيمي وبلاد مالي وهي المعروفة ببلاد التكرور وتشمل خمسة أقسام هي مالي والصوصو وبلاد غانا وبلاد كاوكاو وبلاد التكرور[2].

فالسودان الغربي يختلف عن بلاد السودان ويعد جزء منها، ويشمل : موريتانيا ، مالي ، السينغال ، وغامبيا ، وغينيا بيساو ، وفولتا العليا وبنين ونيجيريا .. والنيجر وتشاد ..[3]، وقد يحدث بعض الخلط مع ذكر منطقة الساحل الافريقي[4]، والتي تدخل بلاد السودان عموما في نطاقها .

وقد كان لهذه المنطقة - كما اسلفنا- علاقات ثقافية وحضارية بشمال افريقيا وخصوصا الجزائر منذ عقود من الزمن، فرضتها عدة ظروف وعوامل مختلفة .

2 أسباب نشأة العلاقاتبين الجزائر و بلاد السودان الغربي :

من أهمها : ما يتعلق بالطبيعة وعامل القرب الجغرافي الذي ساعد على مد جسور التواصل في عدة مجالات، وخاصة عندما يتعلق الأمر بالحركة التجارية التي تميزت بالنشاط وبرزت تجارة القوافل والتبادل بين الجزائر وباقي أقطار ودول الساحل الافريقي وخصوصا السودان الغربي، مما انعكس على باقي مجالات الحياة الأخرى.

وكذلك السبب الديني حيث أن انتشار الدين الاسلامي ببلاد المغرب ووصوله إلى القارة الافريقية كان من أكبر العوامل التي ساهمت في تدعيم التواصل وما يرتبط به من عطاء حضاري وثقافي لا زال ثماره يُجنى إلى اليوم ، حيث عرف الإسلام طريقه إلى تلك الربوع عن طريق التجار أولا، ثم الدُعاة ثانيا وإن كان الفصل بينهما صعبا، إذ كان غالبا ما يجمع أولئك وهؤلاء بين التجارة والدعوة معاً، ودخول الإسلام إلى هذه المناطق يحفه بعض الغموض ، غير أن هناك اشارات تفيد أنه يرجع إلى العهود التي فُتحت فيها بلاد افريقيا الشمالية نفسها، وربما إلى عهد عقبة بن نافع [5] أو عبيد الله بن الحبحاب كما ينص على ذلك صاحب البيان المُغرب [6].

ونجد انتشار الثقافة العربية الاسلامية أيضا عامل مهم ساهم في تكوين هذه العلاقة ومد جسور التواصل، حيث وصلت الثقافة العربية الاسلامية إلى بلاد السودان الغربي بل إلى قلب افريقيا وتأثّرت بعض اللغات الإفريقية كالهوسة والسواحلية، وتفاعلت مع بعض اللغات في غرب افريقيا مثل الفولانية والولوفية ..[7]

وأصبحت تلك الشعوب مسلمة ترتبط مع شعوب الشمال بأقوى الروابط وأحكمها وهي رابطة الدين والثقافة والتاريخ ، والعادات والتقاليد المنبثقة عن تعليمات الاسلام وغير ذلك من مظاهر النشاط والسلوك الاجتماعي [8].

وزادت وشائج الإتصال العربي الإفريقي في مختلف جوانب الحياة الروحية والمادية واتخذت من تعاليم الإسلام مرجعا موحدا ، كلما ازدادوا تمسكا به توطدت علاقاتهم الاجتماعية والثقافية وتجذرت داخل المجتمعات .

والمواطن الإفريقي حين يعتنق الإسلام يجد نفسه جنبا إلى جنب مع بقية المسلمين، يتساوى معهم في جميع الحقوق والواجبات، ويجد من الرعاية والعناية ما لم يكد يجده عند أهله وذويه ، بل إن الإسلام يرفع من مستواه الاجتماعي ، ويجعل منه قائدا وأميرا على الجيوش ووالياً على البلاد إذا أظهر من الحكمة وحسن التدبير ما يجعله أهلا لذلك.

فأيًّا كان لون بشرة الرجلوأيا كان مركزه الاجتماعي ، وأيًّا كانت حالته الاقتصادية، فإنه يرحب به دائما للصلاة في المسجد والإختلاط بإخوانه المسلمين ، وهو أمر لا تستطيع المسيحية في وجهها العملي أن تدّعيه [9].

3 العوامل المساعدة على تفعيل التواصل بين الجزائر وبلاد السودان الغربي:

أ- الحركة التجارية:

قامت حركة تجارية مزدهرة بين الاقليمين، ومن ثم رأينا الثقافة العربية ، والعلوم الإسلامية تنتعش خاصة في الحواضر السودانية ذات الإشعاع الاقتصادي مثل : غاو وتومبكتو، حيث لم تخلُو البعثات التجارية الجزائرية من

رجال العلم والثقافة الذين زَاوَجُوا بين النشاط التجاري واهتمامهم بالعلوم والتأليف ، وشاركوا في شتى مناحي الحياة، فإذا استقر بهم المقام أنشأوا حلقات لتعليم القرءان والعبادة وزاولوا نشاطا تعليميا ودعويا ، إلى جانب نشاطهم التجاري ...[10]

إن الروابط التجارية كان لها أثر ومردود كبير، بحيث أن الدارس يقف منبهرا أمام روعة وتنوع الزخم الثقافي والحضاري الذي هو ثمرة ونتاج التواصل التجاري .

ب- الطرق الصوفية:

أغلب الطرق الصوفية التي نشطت في حواضر السودان الغربي مثل القادرية والشاذلية كانت موجودة في الجزائر وبلاد المغرب، وكان شيوخ الزوايا مرجعا بالغ الأهمية بالنسبة لقراء ومريدي هذه الطرق، وَسَعَتْ الممارسة الصوفية إلى ايجاد مناخ ملائم لقيام نهضة علمية ونشاط تأليفي في الفقه والتراجم والسير، شارك في إثرائها ثلة من العلماء ورجال التصوف ، كما لعبت هذه الطرق المنتشرة في الإقليمين[11]، دورا سياسيا ودينيا هاما كان له كبير الأثر في تاريخ وحضارة هذه البلاد ونهضتها ..[12]

ج- اللغة العربية:

انتشرت اللغة العربية في حواضر السودان الغربي ، جنبا الى جنب مع تغلغل الإسلام في النفوس ، حيث اصبح لزاما على الزنجي الذي اعتنق الاسلام أن يتقن اللغة العربية ، باعتبارها أداة العبادة ومفتاح الولوج إلى عوالم الثقافة العربية الاسلامية، ومن ثم الانفتاح على حضارة هذا الدين الحنيف، وعلى الرغم من أن بعض القبائل الزنجية المسلمة ظلت متمسكة بلهجاتها الأصيلة و منافحة عنها ، فإنّ اللغة العربية أمكن لها أن تتطور وتنمو في هذا الوسط لتغدو لغة المثقفين والفقهاء الذين أدلو بدلوهم في إخصاب التفاعل الحضاري والثقافي ...[13]

د - رحلات الحج :

دأب مسلمو غرب افريقيا على تنظيم رحلات الحج الجماعية إلى بلاد الحجاز ، غير مكترثين بالصعاب والمعوقات ، وشارك الملوك والوجهاء والأمراء في الحواضر الإسلامية السودانية في هذه الرحلات وقاموا على رعاية شؤون الحجاج ، واتصالهم بالشعوب الاسلامية المختلفة في الجزائر وعموم بلاد المغرب ومصر والحجاز تأكيدا لروح الأخوة التي فرضها الإسلام ..[14]

وكانت بلاد المغرب والجزائر مكان التقاء وفود الحجاج المختلفة من حواضر السودان الغربي وبلاد الساحل الافريقي، الذين ينطلقون في مجموعات وركب واحد صوب ليبيا ثم مصر ثم أرض الحجاز ، مما أتاح الفرصة للاحتكاك والتفاعل وبخاصة بين رواد العلم والمعرفة ، وكانت الوفود العابرة لأداء مناسك الحج تقدر بالألاف حسب ما ذكرته المصادر التاريخية .

ه- وحدة المدرسة الفقهية:

أُعجب مسلمو غرب افريقيا بالمذهب المالكي ، وهو مذهب الجزائريين و المغاربة الذين آثروه على المذاهب الأخرى منذ ردح من الزمن ، ويعد ترحيب أهل السودان الغربي بهذا المذهب مظهر من مظاهر الائتلاف بين الجانبين .

وحظي المذهب المالكي باحترام سكان حواضر بلاد السودان الغربي، وكان من أدوات الإشعاع ومُحفّز هام لجمع شمل السكان حول نفس المرجعية الفقهية التي سادت بلاد المغرب عموما ، مما عجّل بقيام نهضة علمية ونشاط فكري وحضاري وبروز نخبة من الفقهاء والعلماء[15] الذين مارسوا حركة التبادل الفكري والثقافي بين الاقليمين[16] .

واختيار سكان السودان الغربي للمذهب المالكي قديم ، ويعود لإرتباطهم بشمال افريقيا (الجزائر) حيث يسود هذا المذهب منذ عهود الاسلام الأولى ، ولا يزالون متمسكين به الى اليوم، شأنهم في ذلك شأن المغاربة والجزائريين سواء بسواء ، حيث تحرص تشاد – مثلا- أشد الحرص على دراسة الموطأ في المساجد والزوايا تمكينا لمذهب مالك.

4 مظاهر التبادل والتواصل الفكري والثقافي :

تعددت مظاهر التبادل والتواصل بين الجزائر وبلاد السودان الغربي وتنوعت، غير أن أهمها ما يلي :

أ- التواصل عن طريق الرحلات :

لمّا كان التواصل بين بلاد المغرب والتي منها الجزائر و غرب افريقيا ضاربا في أعماق التاريخ ، فقد كان من الطبيعي أن تكون الرحلة قائمة بين الطرفين ، وأن يقع انتقال السكان من الجزائر إلى بلاد السودان الغربي ومن هذه الأخيرة إلى شمال افريقيا ، وضمن هذه وتلك برز عنصر العلماء الذين ساهموا في نشاط الحركة الفكرية والثقافية .

ولو بحثنا في كتب التراجم والموسوعات وكتب التاريخ عن العلماء الذين رحلوا إلى السودان لصعب علينا الأمر وطال بنا الأمد ، لكن لابد من الاشارة إلى بعض الأعلام وأشهرهم مثل العالم : محمد بن عبدالكريم المغيلي التلمساني [17]، الذي يعد من أبرز وأشهر العلماء الجزائريين الذين أذكوا جذوة النشاط الفكري في حواضر السودان الغربي وأثَّروا في أحداث هذه الأمة .

والأمر ذاته بالنسبة للوافدين من بلاد السودان الغربي إلى الجزائر وحواضرها العلمية النشطة في تلك الفترة مثل منطقة توات ، حيث أخذت المساجد والمجالس العلمية والزوايا تزهو بزوارها من كبار العلماء الوافدين والزائرين لتنشيط حركة التبادل الفكري والثقافي ، مما أدى إلى ازدهار حركة التأليف في شتّى أنواعها واتجاهاتها ونذكر : عمر بن محمد أفيت [18]، وأحمد بن محمد السوداني [19].

ب- تبادل المؤلفات في شتى فنون العلوم والمعرفة:

لا تكاد تختلف كتب الدراسة في بلاد السودان الغربي عنها في الجزائر، ذلك أن تشابه المذهب والقراءة وتبادل الرحلات بين العلماء أدى إلى تشابه الكتب المعتمدة في الدرس هنا وهناك ، وهكذا كانت العناية مُنصبة على المواد الدراسية المتمثلة أساسا في الفقه والحديث والسيرة والنحو والمنطق ، وما يتبع ذلك من الشعر والتصوف ، والمديح النبوي ، وهي مواد كان لها شأن كبير في ثقافة العلماء الجزائريين والمغاربة منذ أمد بعيد، ووجدنا لها الأثر نفسه منذ زمن لا يقل عن القرن الخامس الهجري، وتبعا لهذا كانت الكتب المتبعة في بلاد السودان الغربي وفي جزء كبير منها هي مما ألفه المغاربة والجزائريين، أو تناولوه بالشرح والتعليق والإختصار[20]، وقد حظيت كتب الفقه باهتمام العلماء وشكلت حصة الأسد من العناية والاهتمام والدراسة ، مثل كتاب المعيار للونشريسي ، ومن كتب التوحيد إضاءة الدجنة في عقائد أهل السنة لأحمد المقري ، وكتاب في المنطق لمحمد بن عبد الكريم المغيليالتلمساني[21].

وارتبط علماء السودان بمؤلفات إخوانهم من الجزائر وبلاد المغرب عامة ، حيث اعتمدوها في حِلق العلم والدروس ، وألفو حولها تآليف مختلفة تجلّت في الشروح والتعاليق والردود والحواشي ، مثل شرح منظومة المغيلي في المنطق لوالد أحمد بابا التمبكتي، وقد أسهم علماء السودان الغربي بنوع آخر من التأليف يمكن أن يدرج تحت اسم "الردود"وقد تجلى أكثر ما تجلى في جانب التشريع والجانب العقدي، واتبع بعض علماء المغرب نفس الطريقة وكانت لهم بعض الردود أيضا ومن الأمثلة : رد المختار الكنتي المسمى بجذوة الأنوار على عالمين من بلاد شنقيط ، أحدهما يقال له المختار بن بون (1208ه) وكان شديد الانكار على المختار الكنتي ، ثم رجع عن ذلك وصارت بينهما

مكاتبات ، ومما يتصل بهذا النوع من التأليف كتاب فتح القدوس في الرد على أبي عبدالله محمد أكنسوس لأحمد البكاي بن محمد بن المختار الكنتي وهو – حسب ما وصفه إبراهيم الكتاني – مجلد ضخم في الرد على الطريقة التجانية ، وفيه ندّد مؤلفه بالتقليد ودعوى انقطاع الاجتهاد، وعدّ ذلك صدًّا عن الكتاب والسنة [22].

كما حظيت كتب رجال المذهب المالكي بنصيب وافر من المؤلفات ، مثل كتاب نيل الابتهاج الذي ألّفه العلامة أحمد بابا السوداني كتذييل على الديباج المذهب لابن فرحون ، وألّف ردا عليه محمد بن محمد بن إبراهيم العلمي الحسني المتوفىّ في القرن الحادي عشر الهجري القرن السادس عشر الميلادي سمّاه : "إيضاح السبيل لمن بالديباج والتكميل"

كما ألف أحمد بابا كفاية المحتاج وهو مختصر لنيل الابتهاج وذيّله محمد بن الطيب القادري المتوفى سنة 1187هـ بكتاب سماه :الإكليل والتاج في تذييل كفاية المحتاج " [23].

وما قيل في جانب الفقه والتشريع يقال في جانب القراءات أيضا ، حيث كان سكان الإقليمين في عمومهم يأخذون بقراءة نافع من رواية ورش، في مختلف الأزمان والأمصار ففي القرن 10 الهجري 16 م ، كان محمد بابا بن محمد الأمين (ت 1014هـ) يأخذ روايتي ورش وقالون دراية عن حامل لوائهما في زمانه سيد ابن عبد المولى الجملال وعن عبد الله بن الفقيه أحمد بري [24].

وفي القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي ، ذكر عبد الله بن فودي الفلاني عند افتتاحية تفسيره "ضياء التأويل" : أنه اعتمد في هذا التفسير على أرجح الأقوال بإعراب ما يحتاج الإعراب منه والتنبيه على القراءات المشهورة على قراءة نافع من رواية ورش، إذْ هي قراءتنا في هذه البلاد وبيان الأحكام الشرعية مع مراعاة مذهب مالك فيها، إذ هو مذهبنا في الأحكام الشرعية الفرعية ..." انتهى جزء من كلامه[25].

ورغم اهتمام العلماء في الجزائر وبلاد السودان الغربي بالعلوم الشرعية وإخراج التصانيف والمؤلفات حولها إلا أنهم لم يهملوا أنواع العلوم الأخرى ، واهتم العلماء ايضا باللغة والأدب والشعر بأنواعه حيث لم يكن الإبداع غائبا عن مؤلفات علماء الاقليمين(الجزائر وبلاد السودان الغربي) فظهر ذلك في الفنون التالية :

أ –الشعر : الذي يمكن تقسيمه إلى :

*– شعر الحنين إلى الوطن :

والباعث عليه هو غربة الشعراء أثناء رحلاتهم الى البلاد البعيدة ، واستشعارهم دفء الأهل والأحبة والإخوان ، وتذكرهم لمراتع الصبا والأوطان ، ومثال على هذ ما أجاد به أحمد بابا السوداني وهو ببلاد المغرب حين تذكر موطنه ببلاد السودان حين قال :

أيا قاصدا كاغو فعُجْ نحو بلدتي وزمزم لهم باسمي وبلغ أحبتي

سلاما عطيرا من غريب وشائق إلى وطن الأحباب رهطي وجيرتي

وعزّ اقاربا هناك أعِـــــــزّةٍ على السادة الأولى دفنت بقريتي

**– المديح النبوي :

شعر المديح عند أهل السودان عامة وأهل الصحراء خاصة معروف، واشتهرت عديد القصائد التي جادت بها قرائح الشعراء والعلماء الذين تفننوا في بحور العلم والأدب، وشعر المديح النبوي مظهر من مظاهر التواصل بين بلاد السودان الغربي والجزائر و بلاد المغرب عموما ، ينهلون فيه جميعا من الروائع الأندلسية والمشرقية ، ويتبادلون

القصائد في ما بينهم ويبدعون قصائد مدحية تعّبر عن ذواتهم وواقعهم بكل ما يحيط به من ملابسات ثقافية وحضارية وتاريخية ، ونورد ابيات جميلة لقصيدة في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم جاءت في سبعة واربعين بيتا من بحور الخليل مطلعها [26]:

صلاة ربي مع السلام على النبي خير الأنام

بادي الشفوف داني القطوف برّ عطوف ليث همام

ذاك النبي الهاشمي ذاك العلي الهادي التهامي

***** - الشعر الاجتماعي :**

يراد به ذلك الضرب من الشعر الذي يقوله صاحبه كتعبير وتصوير لقضايا المجتمع الإجتماعية والدينية ،أو كوصف لواقعة إجتماعية مهمة أو عرض حال لما يدور من آفات ومحن تعرض حياة الناس العامة.

مثال القصيدة اللامية التي قيلت في معارضة أهل توات[27]وفقيههمالعصنوني التلمساني والإنكار عليهم إكرام اليهود:

أيا قاطني توات فاصغوا الى قولي فقد آن أن أبوح بالبعض والكل

أأنتم على الدين النبي محمد أم القوم واليهود شكل الى شكل

فما بالكم شرفتموهم عليكم والاسلام أولى أن يشرف في الأصل

فإن كان هذا الرأي رأي فقيهكم فما الظن بالسفيه والناقص العقل[28].

ج –حاضرة توات ودورها في تنشيط الحركة العلمية بين الجزائر وبلاد السودان الغربي:

تعد منطقة توات من الحواضر التي ساهمت في تفعيل المشهد الثقافي ودفع الحركة العلمية في الجنوب الغربي للجزائر في الفترة الحديثة ، وربط علاقات ووشائج متينة مع عدة حواضر أخرى مثل فاس ومراكش في المغرب الأقصى ، و تونس ومصر وبلاد الحجاز، و عديد المدن من بلاد السودان الغربي كغاو وتومبكتو وجنى و بلاد التكرور، وإقليم توات منطقة من وطننا الجزائر – المعروفة سابقا بالمغرب الأوسط- وجزء لا يتجزأ منها وهو امتداد لها نحو الجنوب ، كما أنها امتداد له نحو الشمال دون أن يكون في ذلك قسر أو اكراه ، وهو تكامل طبيعي لجسم واحد ، ويقع الإقليم في جهة الجنوب الغربي من خارطة الجزائر متموقعا ما بين خطي الطول 01 درجة شرقا و04 درجات غربا ، وما بين دائرتي عرض 26 درجة جوبا و 30 درجة شمالا ، يمتد على مساحة قدرها ألفا ميل مربع من أول نقطة من شماله وهي قصر تبلكوزة إلى آخر نقطة في جنوبه وهي فقارة الزوى على شكل هلال بين المنطقتين ، وهو بموقعه هذا يتوسط الجهة الغربية من الصحراء الإفريقية الكبرى التي ينتمي إليها ، ويحتل موقعا استراتيجيا حيث يعد محوراتصالمهم بين شمال الصحراء والساحل الإفريقي المعروف قديما ببلاد السودان، كما أنه نقطة التقاء بين البلدان الواقعة في غربه وشرقه [29].

لقد عرفت هذه المنطقة من الجزائر في الفترة الحديثة إنتاجا علميا وحركة دؤوبة للعلماء الجزائريين و العلماء الوافدين من باقي الحواضر والمدن القريبة والبعيدة ، وكانت بحق مركز إشعاع استفاد منه طلبة العلم وعامة الناس فانعكس ذلك على الحياة العامة للمجتمع الذي انفتح على باقي المجتمعات المجاورة وخاصة من بلاد السودان الغربي بحكم العلاقة الوطيدة التي تكوّنت بفضل حركة التبادل الفكري والعلمي والثقافي التي برزت في عدة مظاهر أهمها:

النشاط المتزايد للشيوخ والعلماء في المساجد والزوايا ، وتبادل الزيارات العلمية والتنقل المستمر بين الأمصار في سبيل التزود من العلم ونشره ، حيث عرف الإقليم في الفترة الحديثة (القرن 11 ه /17م) عدة أسماء مثل الشيخ عبدالكريم بن محمد بن أبي محمد التواتي (توفي في القرن 11ه / 17م) ، الذي إرتحل من توات إلى عدة مناطق في سبيل طلب العلم قاصداً بني عباس وفجيج وبلاد التكرور ، والشيخ أبو القاسم التواتي (ت القرن 10ه/ 16 م) الذي

انتقل إلى تمبكتو وسكنها ودرّس فيها وكان محل إحترام من العامة و الخاصة ، والشيخ سالم العصنوني (ق 10 ه / 16 م) الذي سافر الى بلاد السودان وأسلم على يديه خلق كثير [30]

وتجدر الاشارة إلى أن الزيارات العلمية من توات إلى بلاد السودان الغربي كانت ذات تأثير كبير في نشر العلم بهذه المنطقة ، ومن العلماء الذين نبغوا في بلاد البرنو وأثّروا في الحياة الثقافية والاجتماعي الشيخ محمد الطاهر الفلاتيالتواتي الذي كان نسيجا لوحده عالما بالمنقول والمعقول ، صالحا تقيا ورعا [31]

وممن كان بعد أولئك وارتحل برسم نشر العلم الشيخ امحمد بن أبي محمد الأمريني (ت القرن 11ه / 17م) الذي اشتغل بالتجارة عوضا عن مهمة القضاء التي عرضت عليه ، وصار ينتقل بتجارته بين توات والسودان وحيثما حلّ وارتحل كان ينتهز الفرصة فيعقد مجالس العلم ويبلّغ الرسالة بالتعليم، وجاء بعد هؤلاء من أكمل مسيرة نشر العلم من أهل القرن الثاني عشر الهجري (18 الميلادي) مثل الشيخ سيدي علي بن حنيني (ت 1115ه) الذي رحل إلى السودان ووصل نيامي و النيجر وقام بنشر الدعوة والتدريس لأمور الدين ومكث هناك سنين ثم عاد إلى الوطن [32]

وبالمقابل كانت هناك حركة عكسية وزياراتإلى توات من طرف طلبة العلم وشيوخ قدموا إليها من بلاد السودان الغربي لتكتمل صورة التبادل الفكري والعلمي والثقافي ، ومنهم على سبيل المثال :
الشيخ عبد الله بن أحمد الفلاني (ت القرن 12 ه / 18م) الذي قدم من بلاد التكرور إلى توات ليدرس في زاجلو على يد الشيخ عبدالرحمن الزجلاوي ، ثم على يد الشيخ عبدالرحمن بن باعمربتنلان ، ليدركه أجله بتدكليت[33] ، والشيخ محمد الايداوعلي (ق 12ه) الذي قدم من شنقيط بعد أن درَس بها إلى توات واستقر في تمنطيط لدى الشيخ البكري بن عبدالكريم دارسا ومتعلما ومدرّساً[34].

5 علماء ساهموا في تفعيل التبادل الفكري والثقافي بين الجزائر وبلاد السودان الغربي:(المغيلي التلمساني أنموذجا):

أ - نبذة عن العلامة المغيلي التلمساني(من علماء القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي) :

لايعرفبالضبطمتىولد،ولكنيبدوأنّهولدفيمطلعالقرنينالتاسعالهجريوالخامسعشرالميلاديوذلكاستنادااإلىتاريخوفاته(1502م)، حفظ القرءان الكريم في صغره كعادة كل أبناء المسلمين الميسورة ، ثم اعتكف على دراسة العلوم الإسلامية والعربية ، والدينية والعقلية على يد الشيوخ والعلماء مثل : الشيخ يحي بن يدير، والشيخ عبد الرحمان الثعالبي ، الذي أخذ عنه بصورة خاصة علم التصوف ، وعندما توسّعت مداركه ومعارفه ، وتزوّد بما يكفيه تصدّى هو الآخر للتدريس كشيخ وأستاذ فتتلمذ على يديه عدد لا بأس به من العلماء والشيوخ أمثال الفقيه أيد أحمد ، والشيخ العاقب الأنصمي، ومحمد بن عبد الجبار الفجيجي وغيرهم [35].

وامتاز بالعلم الغزير والنهل من جميع العلوم ، فقد كان يجمع إلى جانب الإحاطة التامة بالفقه المالكي، علوم المنطق، زد على ذلك أن الرجل كان من شيوخ الطريقة القادرية المبرزين، ولم يبق عالم ولا صوفي ولا فقيه إلا كرع منمعين هذا الرجل في القرن 10 الهجري / 16 الميلادي ، وقد تصدر للإفتاء و القضاء في كاشنةأو ما يعرف اليوم بنجيريا، وترجم له أحمد بابا قائلا: خاتمة المحققين الإمام العلامة الفهامة القدوة الصالح السني أحد الاذكياء ممن له بسط في الفهم والتقدم متمكن المحبة من السنة وبغض أعدا الدين ، كما يذهب الشيخ آدم عبد الله الألوري إلى أن الإمام المغيلي التلمساني من أبرز القامات العلمية الوافدة على بلاد السودان الغربي من الجزائر وبلاد المغرب ، حيث اضطلع بدور مهم في تاريخ هذه الأقاليم من خلال حلقاته العلمية ونشاطه التأليفي ومناظراته مع علماء وقته من الغرب والشرق ، مثل الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي ، ويضيف : دخل عدد من الأعلام المغاربة الى بلاد

السودان منذ فجر الإسلام وعملوا فيها على نشر العلم والأدب والثقافة حتى كثر فيها العلماء...، ولم يخلّد التاريخ أثرا لعالم من بلاد المغرب أو المشرق مثل ما خلّده للإمام المغيلي في غرب افريقيا عموما وفي نجيريا خصوصا ...

حيث تأثر بالمغيلي جميع العلماء الذين اجتمعوا به واحتفظوا برسائله وفتاواه ومؤلفاته وحفظوها في صدورهم وخزنوها في مكتباتهم حتى توارثها الخلف عن السلف[36].

ولم يقتصر تأثير المغيلي على رواد العلم ورجال التصوف ، وعامة الناس بل امتد ليشمل الأمراء وأهل الحل والعقد بالبلاد ، مثل ما فعله مع سلطان نيجيريا محمد وقفا الذي كتب له المغيلي رسالة هي عبارة عن وصايا تتعلق بشؤون الحكم وتنظيم الدولة على غرار كتاب الأحكام السلطانية للماوردي(ت 450ه)، وكنتيجة لهذا التأثير مهّد هذا السلطان إلى إقامة أول دولة إسلامية في نيجيريا تعتمد المذهب المالكي، كما أن أفكار المغيلي كان لها الأثر البالغ على الشيخ عثمان دان فوديو الذي أقام دولة إسلامية بغرب افريقيا وحّدت جميع إمارات الهوسا [37].

ب - رحلاته ودورها في بعث حركة التبادل بين الجزائر وبلاد السودان الغربي:

كان للمغيلي التلمساني عدة رحلات إلى أكثر من بلد ومِصْر ، غير أن أهمها تلك التي كانت صوب بلاد السودان الغربي ، مثل رحلته إلى بلاد الأهير شمال نيجيريا ومن هناك أخذ طريقه إلى بلاد الهوسة واستقر بمدينة تيغزا ، التي كانت مزدهرة تجاريا وثقافيا ، حيث اشتغل بالتدريس والوعظ والإرشاد في مساجدها وسبقته إليها سمعته كعالم ومصلح ومقاوم للبدع والخرافات ولخبث اليهود ومكرهم[38].

ومن تيقدا انتقل إلى كانو ، ثم إلى كاتسنا واستقر هناك بعض الوقت وتزوج وانجب ، واتصل بأميرها أبي عبد الله محمد بن يعقوب الذي طلب منه أن يكتب له جملة مختصرة في ما يجوز للحكام في ردع الناس عن الحرام ، فأجابه لرغبته وكتب له تلك الرسالة وشرح له فيها كيف يمكن أن يحكم بلاده، وشعبه ورعيته وفق الشريعة الإسلامية وأن يقاوم العادات الوثنية [39].

واتضح من خلال هذه الرسالة أن المغيلي على إطلاع واسع بأوضاع السودان الغربي السياسية والاقتصادية و الإجتماعيةوالثقافية ، وبسيرة وسلوك أمرائه وسلاطينه وعادات سكانه ، كما اتضح أنه كان شديد الحرص على أن يسود الشرع الإسلامي في هذه البلدان[40].

وبعد اقامة طويلة في بلاد الهوسة انتقل المغيلي إلى بلاد التكرور في فولتا العليا شمال السنيغال غرب بلاد غانه القديمة ، والتحق بمدينة غاو عاصمة مملكة الصنغاي ، والتقى بأميرها الأسقيا محمد الكبير(حكم من نهاية القرن 15 م الى نهاية الثلث الأول من القرن 16 م) ، وكان قد ضم إلى مملكته بلاد الكبّى شمال نيجيريا الحالية بين مملكة بورنو ومملكة الصنغاي ، فجنّد عددا من العلماء لنشر الإسلام في تلك المنطقة و هدم العادات الوثنية وكان من بينهم العلامة المغيلي التلمساني [41].

وقد تعرّف المغيلي على الرحالة المصري جلال الدين السيوطي خلال رحلته إلى بلاد التكرور، وتحاور معه في عدة قضايا علمية وفكرية اختلف معه حول المنطق اليوناني الذي يؤمن به هو ، وينكره السيوطي وجرت بينهما محاورات ومراسلات طريفة حتى بالشعر .

وخلال إقامة المغيلي لدى الأسقيا محمد الأول سأله أن يكتب له رسالة ينصحه فيها حول سبع مسائل ذكرها في شكل أسئلة ، وطلب منه أن يعرّفه بحكم الشرع الإسلامي فرحب المغيلي بذلك وتسلم منه الأسئلة وقدم له أجوبة إضافية ومفصلة ودقيقة عن كل مسألة .

بقي المغيلي في بلاد الصنغاي مدة من الزمن يواصل عمله الإصلاحي و يمتّن أواصر التبادل الديني و الثقافي والفكري بين الجزائر وبلاد السودان الغربي ، وقد لقي القبول والاستحسان والتقدير، إلى أن بلغه قيام اليهود بقتل ابن الشيخ عبد الجبار في توات فغضب وتألم وطلب من الأسقيا أن يعتقل كل التواتيين في بلاده ففعل [42]، ولكن الشيخ أبا المحاسن محمد أنكر على المغيلي ذلك وعاتبه ، وقال له ما ذنب هؤلاء هنا بالصنغاي وبما فعله أولئك بتوات فأصغى لرأيه و تدخل لدى الأسقيا ورجاه أن يطلق سراحهم فامتثل لرغبته كذلك [43].

لقد كان لهذه الرحلات دور كبير في تنشيط حركة التبادل الثقافي بين الجزائر التي تعد أهم بلاد المغرب وبين بلاد السودان الغربي ، من خلال استفادة أهالي البلاد التي زارها ومكث فيها من خبراته وتجاربه ، والنهل من علمه الغزير في شتى أنواع المعرفة .

وفي الوقت نفسه تعرّف المغيلي على عادات وتقاليد وأنماط العيش لدى مختلف الشعوب التي خالطها، وقام بواجب النصح والإرشاد والوعظ فيها بل امتدّ ذلك حتى إلى الحكام الذين استأنسوا بعلمه ومعارفه وطلبوا منه الفتاوى التي تقيم الدين الاسلامي في بلدانهم وتحارب الوثنية والبدع التي كانت مُنتشرة .

وبفضل هذه الرحلات قويت الصّلات بين الإقليمين ولقي العلماء هنا وهناك حفاوة وتقديرا كبيرين ، سواء من عامة الناس أو خاصتهم ، وأخذت المجالس والمساجد تزهو بعلماء كبار أمثال المغيليوالتمكبكتي السوداني ، وعلماء

ممالك الغرب الافريقي، وازدهرت الحركة الثقافية ازدهار كان له الأثر الواضح في حركة التأليف بشتى أنواعها واتجاهاتها[44].

ج – أهم الآثار الفكرية والمؤلفات التي استفادت منها بلدان السودان الغربي:

خلّف المغيلي التلمساني وراءه تلاميذ كثيرين بالآلاف في غرب افريقيا، وكتب عنه الكثير وعن سيرته الشخصية والاجتماعية والثقافية ، مثل أحمد بابا التنبكتي ، وابن مريم المليتي ، والمقري ، وغيرهم ، وعدّوه من كبار المصلحين ببلاد المغرب وبلاد السودان الغربي خلال القرنين العاشر الهجري / الخامس عشر الميلادي ، وكان النتاج الفكري لتلك المرحلة متنوعا وغزيرا في ميدان التأليف ، وما يزال الكثير منه مخطوطا ومحفوظا لدى تلاميذه في بلاد السودان الغربي ومن ضمن أهم المؤلفات نجد :

- إكليل معنى النبيل (شرح على مغنى خليل)
- إيضاح السبيل في بيوع آجال خليل
- تنبيه الغافلين عن مكر الملبسين بدعوى مقامات العارفين
- أجوبة على أسئلة الأسقيا محمد الأول الكبير[45]
- تفسير سورة الفاتحة في ورقة واحدة
- منح الوهاب منظومة في علم المنطق وضع لها ثلاثة شروح

- مفتاح النظر في علم الحديث
- كتاب الفتح المبين
- "نيل الابتهاج بالذيل على الديباج"[46] لمؤلّفه : أحمد بابا التمبكتي السوداني .
- جملة مختصرة في ما يجوز للحكام في ردع الناس عن الحرام.

الخاتمة :

بعد استعراضنا لأهم أوجه التواصل والتبادل الفكري والعلمي والثقافي بين الجزائر وبلاد السودان الغربي في فترة التاريخ الحديث وتحديدا بين القرن العاشر الهجري /السادس عشر الميلادي و القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي ، وبيان دور منطقة توات كحاضرة ثقافية مهمة في تلك الفترة كانت مقصد طلبة العلم وعلماء بلاد

السودان الغربي وشنقيط وتمبكتو وبلاد التكرور ، وحتى من بلاد المغرب الاقصى ، مما أدى الى تنشيط الحركة العلمية وازدهار النشاط الفكري والثقافي ، الشيء الذي انعكس ايجابا على حياة الناس العامة ، ورغم شح المصادر وتضارب بعض معلوماتها الا أن ذلك لا ينقص من قيم هذه المنطقة العريقة والمهمة من بلاد الجنوب الجزائري التي نقطة عبور مهمة لبلدان الساحل الافريقي عموما وبلاد السودان الغربي خاصة .

فحركة العلماء ورحلاتهم من الجزائر ومنطقة توات الى بلاد السودان ساهمت في خلق بيئة علمية استفاد منها الجزائريون و الافارقة على حد سواء ، وزادت من معارفهم الدينية والدنيوية ، ووقع التلاقح المعرفي مع غيرهم من علماء البلاد الأخرى فاستفادوا من مناهج غيرهم فنالوا أشرف العلوم ونقلوها الى مجتمعاتهم الاصلية حين عودتهم ، وبرزت مؤلفات غزيرة تحمل علوم مختلفة كالتفسير والمنطق وعلوم اللغة والحيث والسير والتراجم ....

الهوامش والاحالات :

[1]- درج الجغرافيون على التقسيم التالي : ليبيا وتونس والجزائر والمغرب الاقصى .
[2] - محمد أمين المؤدب : جوانب من الصلات الثقافية بين المغرب وغرب افريقيا ، ص 587.
[3] - يحي بوعزيز : تاريخ افريقيا الغربية الاسلامية (من مطلع القرن السادس عشر الى مطلع القرن العشرين) ، دار البصائر الجزائر ، ط خ ، 2009 ، ص 10.
[4] - وهي المنطقة الممتدة على طول الحدود الجنوبية للصحراء الكبرى بدءاً من البحر الاحمر شرقا الى المحيط الاطلسي غربا .
[5] - ابراهيم حركات : طبيعة العلاقات المغربية مع افريقيا الوسطى في العصر الوسيط ، مجلة الحق ، ع 296 ، 1988، ص 185..
[6] - محمد امين المؤدب ، المرجع السابق ، ص 589.
[7] - صومباباكو : التواصل الثقافي بين جانبي الصحراء في العصر الحديث ، ندوة التواصل الثقافي والاجتماعي بين الاقطار الافريقية على جانبي الصحراء، منشورات كلية الدعوة الاسلامية طرابلس الغرب ، 1998 ، ص 152.
[8] - محود شاكر : المسلمون تحت السيطرة الرأسمالية ، منشورات المكتب الاسلامي ، بيروت ط 2 1979، ص 40.
[9] - محمود سلام : الإسلام والتقاليد القبلية في افريقيا ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1969 ، ص 256.
[10]- عطاالله الجمل : المرجع السابق ،ص 140 .
[11]- المقصود بالإقليمين : بلاد السودان الغربي والجزائر (محل دراستنا) .
[12]- عطااللهالجمل : المر : المرجعالسابق،ص147.
[13]- جمال زكريا قاسم : الأصول التاريخية للعلاقات العربية الافريقية ، ص 155.
[14] -عطااللهالجمل : المرجعالسابق،ص144.
[15]- مثل الفقيه العاقب بن عبد الله المسوقي ، وأحمد التمبكتي(963ه-1036ه/ 1556م-1627م) .
[16]- انظر : عبد الرحمن بن خلدون : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، منشورات دار الكتاب اللبناني ، ط3 ، 1968 ، ص 159..
[17] - ينتسب الى قبيلة مغيلة بأحواز تلمسان ، لا يعرف بالضبط متى ولد ، ولكن يبدو انه ولد في مطلع القرنين التاسع الهجري والخامس عشر الميلادي وذلك استنادا الى تاريخ وفاته(1502م) ، انظر : يحي بوعزيز: أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة ، دار البصائر، ط خ ، 2009 ، ج 2، ص 143.
[18] - قاضي تومبكتو ، زار بلاد المغرب وتوفي بمراكش سنة 1006ه.
[19] - قاضي في تومبكتو وإمامها درس مدة في الجنوب الغربي واشتهر بشرح الاجرومية توفي سنة 1045ه.
[20] - محمدأمينالمؤدب : المرجع السابق ، ص 594.
[21] - نفسه ص 595.
[22]- نفسه ص 597.
[23] - عبدالله المرابط : مقال كتب التراجم العامة ، ص 63.
[24] - محمد امين المؤدب ، المرجع السابق ، ص 591.
[25] - محمد المنوني : مقال التكامل الثقافي بين المغرب وافريقيا ، مجلة دعوة الحق ، ع 269 ، 1988، ص 123.
[26] - هي قصيدة ميمية لمحمد بن المختار بن سعيد المعروف بالولي البداليالديماني من شعراء القرن 12 ه 18م .
[27] - توات :
عُرفتعلىمرالتاريخبأنهاأرضأمانواطمئنانوهوماكانعاملاًأساسياًفيتوافدعددكبيرمنالعلماءإليهامنكافةالأقطارالعربيةوالإسلامية،علىالرغممنكثرةجدبها،وقلةرزقها . فهيمعروفةبأنها
"ذاتسباخ،كثيرةالرمالوالرياح،لاتحيطبهاجبالولاأشجار،شديدةالحرارةالمفرطة،لايكادينبتفيهاإلاالنخيلوبعضالأشجارالقليلةلفرطحرارتها.
[28]- تنسب هذه الابيات الى أبي إسحاق إبراهيم بن عبد الجبار الفجيجي
[29]- عبد السلام الأسمر بلعالم : الحياة الفقهية في توات خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين ، أطروحة دكنوراه ، (مخ) ، اشراف أ ، د : سعيد فكرة ، جامعة الحاج لخضر 1 باتنة ، 2016 ، ص 2.
[30]- المرجع نفسه : ص ص 243 251 .
[31]- زينب سالمي : الحركة العلمية في إقليم توات خلال القرون 10/09/08 ه ، 16/15/14 م ، مذكرة ماجستير (مخ) ، اشراف مبخوت بودواية ، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان ، 2012، ص 69.
[32] - عبدالسلام الأسمر بلعالم : المرجع السابق ، ص 251.
[33]- من أقاليم منطقة توات .
[34]-عبدالسلامالأسمربلعالم : المرجعالسابق،ص253.
[35]- يحيبوعزيز: أعلامالفكروالثقافةفيالجزائرالمحروسة ،المرجع السابق ، ص ص 143 144.
[36]- الطيب الوزاني : مقومات التفاعل الثقافي والحضاري بين دول غرب افريقيا والمغرب الاقصى ،ندوةالتواصلالثقافيوالاجتماعيبينالاقطارالافريقيةعلىجانبيالصحراء،منشوراتكليةالدعوةالاسلاميةطرابلسالغرب، 1998، ص ص 488 489 .
[37] - شوقي الجمل: عثمان بن فوديو: مجلة البحث العلمي ، ع 26 ، 1976.، ص 418 419 .

[38] - يحي بوعزيز : تاريخافريقياالغربيةالاسلامية (منمطلعالقرنالسادسعشرالىمطلعالقرنالعشرين) ، المرجع السابق ، ص 73.
[39]- يحي بوعزيز : أعلامالفكروالثقافةفيالجزائرالمحرو.سة،المرجعالسابق،ص 152.

[40]- يحيبوعزيز : تاريخافريقياالغربيةالاسلامية (منمطلعالقرنالسادسعشرالىمطلعالقرنالعشرين) ،المرجعالسابق،ص 73.
[41] -يحيبوعزيز : أعلامالفكروالثقافةفيالجزائرالمحرو.سة،المرجعالسابق،صص152 153 .
[42] - لم يكن الحاكم ليلبي طلبه لولا مكانة المغيلي الكبيرة والحظوة التي يتمتع بها لدى الأسقيا ، وكل هذا بفضل هيبته وعلمه الغزير الذي يحمله .
[43] - يحيبوعزيز : أعلامالفكروالثقافةفيالجزائرالمحرو.سة،المرجعالسابق،ص155.
[44] - محمدامينالمؤدب،المرجعالسابق،ص593.
[45] - أمير مملكة الصنغاي.
[46] - موسوعة عظيمة الشأن سعى فيها صاحبها الى الترجمة لأعيان فقهاء المذهب المالكي الذين أغفلهم قاضي المدينة المنورة الفقيه إبراهيم بن فرحون اليعمري ، الذي ترجم لما يناهز الستمائة من أعلام المالكية في مؤلفه الهام الديباج المذهب في معرفة علماء المذهب .